ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد:09، العدد: 01(2024) ص: 343 - 353

الشعر التراثي والمساءلة الثقافية

نماذج مختارة

Traditional poetry and cultural accountability

Selected models

سعيدة تومي*
جامعة البويرة (الجزائر)
s.toumi@univ-bouira.dz

أ.د.مصطفى البشير قط
جامعة المسيلة (الجزائر)
mostefaelbachir.gatt@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2023/10/01
تاريخ القبول:
2024/02/18

الكلمات المفتاحية:
- ✓ النص الشعري
- ✓ الجماليات اللغوية
- ✓ المضمرات النسقية

الملخص:

ينفتح الخطاب النقدي على تساؤلات مستمرة لتحيل إلى تساؤلات أخرى لانهائية تبحث في المبدع والنص والقارئ والتاريخ والإنسان، ومن فضاءات النقد المترامية تأسس النقد الثقافي الذي ما فتئ يتجاوز النص بوصفه أيقونة جمالية إلى فسيفساء ثقافية، لتسم النص الإبداعي بذلك الإشعاع الثقافي الذي يمتد إلى أفق رحب يقول النسق فيه ما لم يقله النص.

ولهذا ستحاول هذه الورقة البحثية استكشاف مضمرات النص الشعري التراثي بعيدا عن جمالياته اللغوية وأبنيته الدلالية الظاهرة، فقد انبثق النقد الثقافي من رحم الدراسات الثقافية التي عملت على توسيع أفق التحليل متجاوزا في ذلك الحمولة اللغوية وبريقها الجمالي إلى رحاب الثقافة وامتداداتها الشاسعة.

يمكننا تلخيص ما وقفت عليه هذه الدراسة في ثنائية (الجميل الشعري / القبيح الثقافي)، ففي خطابنا الشعري التراثي جماليات لغوية لا ينكرها أحد مازلنا نفخر بها ونستمتع بسماعها وتعجبنا بلاغتها، إلاّ أنّ ذلك يضمر أنساقا ثقافية في غاية الخطورة والجدية، و البحث فيها من ضروريات النقد الثقافي.

Article info

Received
01/10/22023
Accepted
18/02/2024

Keywords:
- ✓ *Keyword: Poetic text*
- ✓ *Keyword: linguistic aesthetics*
- ✓ *Keyword: systemic impliments*

Abstract :

Critical discourse opens to continuous questions that refer to other infinite questions looking at the creator, the text, the reader, history, and the human being. Welcome to say the system what the text did not say.

Therefore, this research paper will attempt to explore the implications of the heritage poetic text away from its linguistic aesthetics and its apparent semantic structures. Cultural criticism emerged from the womb of cultural studies that worked to expand the horizon of analysis beyond the linguistic load and its aesthetic luster to the vastness of culture and its vast extensions.

We can summarize what this study stood on in the duality of (the poetic beauty / the cultural ugly), in our heritage poetic discourse, linguistic aesthetics that no one denies. It is necessary for cultural criticism).

* سعيدة تومي ، أستاذ محاضر أ ، جامعة آكلي محند أولحاج، البويرة

1. مقدمة:

تتجلى كينونـــة الخطاب الأدبي في ترسيمات غريبة تجمع ببين المتناقضات، فبين الواقع واللاواقع و بين الزمان واللازمان، وبين المكان واللامكان وبين التاريخ ولا تاريخ وبين الحركة والسكون، وبين المقول والمسكوت عنه ...الخ ، بين كل هذا يضمن النقـد لنفسه مكانا وسطا لزخم القراءات الباحثة في كوامن النص و نوايا المبدع وقضاياه.

وبذلك ينفتح الخطاب النقدي على تساؤلات مستمرة لتحيل إلى تساؤلات أخرى لانهائية تبحث في المبدع والنص والقارئ والتاريخ والإنسان، ومن فضاءات النقد المترامية تأسس النقد الثقافي الذي ما فتئ يتجاوز النص بوصفه أيقونة جمالية إلى فسيفساء ثقافية، لتسم النص الإبداعي بذلك الاشعاع الثقافي الذي يمتد إلى أفق رحب يقول النسق فيه ما لم يقله النص.

ولهذا ستحاول هذه الورقة البحثية استكشاف مضمرات النص الشعري التراثي بعيدا عن جمالياته اللغوية و أبنيته الدلالية الظاهرة ، ومن ذلك كان لابّد لنا ان نتساءل :

- **ما الذي قاله خطاب الثقافة و لم يقله خطاب الأدب؟**
- **ما الذي يضمره النص الشعري التراثي من أنساق ثقافية؟**

انبثق النقد الثقافي من رحم الدراسات الثقافية التي عملت على توسيع أفق التحليل متجاوزا في ذلك الحمولة اللغوية و بريقها الجمالي إلى رحاب الثقافة وامتداداتها الشاسعة.

2. المضمرات النسقية/ مساءلـــة المفاهيم :

يمثل النقد الثقافي بديلا جديدا يتجاوز حمولة البلاغة الجمالية وتقوقعات النقد إلى حدود أكثر إضاءة و أجدى نفعا و أوسع تشريحا ، حيث تمتد أواصره إلى الأنساق المضمرة ، من خلال استثارة شرارة المضمر التي تنطوي تلابيبها كُمونات نسقية شديدة الخفاء تضيء الداخل ، فيكون النقد الثقافي في جدواه افتضاضا لمضامين النقد التقليدي ، و تجاوزا لها إلى أفق منداح لا تحدّه سماء تعلو فيه سلطة النسق على سلطة النص ، فقبحيات النص التي تختفي وراء السكتة الجمالية المؤسسة على أنساق متناقضة، قد لا تتزامل أبدا حيث النسق الظاهر يقول شيئا ،أما النسق المضمر فيرسم ضمن تلابيبه وشائج ثقافية غير معلنة ضمن حفرية أيديولوجية تتبلور في حضورها ضمن نسق ثقافي لتقول شيئا آخـر يتوارى وراء النسق الجمالي المعلن (سعيدة تومي وآخرون، 2020، 13.14).

ينبني النقد الثقافي على نظرية الأنساق المضمرة، وهي أنساق ثقافية وتاريخية تتكون عبر البيئة الثقافية والحضارية، وتتقـن الاختفاء تحت عباءة النصوص، كمالها دور فاعل في توجيه الثقافة، إنّه يتعامل مع النص على أنّه «حادثة ثقافية و ليس مجتلى أدبيا فحسب »(عبد الله الغذامي،2005، 65).فلم يعد النظر إلى النظام الداخلي للّغة وحده كافيا في البحث عن معنى

النص، لأن التحليل اللغوي لا يقـدّم إلا المعنى الحرفي كما يعيد ذاته في كلّ مـرّة في حين يبقى ما يحمله من مضامين اجتماعية وأعـراف تاريخية وسياسية و نظم اقتصادية بعيدة عن التحليـل والمعالجة.(سعيدة تومي وآخرون، 2020، 23).

يحدد الباحث ضياء الكعبي الأنساق الثقافية بأنها نظم(Systems) بعضها كامن وبعضها ظاهر في أيّة ثقافة من الثقافات، تتفاعل في هذه النظم العلاقات المجازية عن التذكير و التأنيث الثقافيين، والعرق والدين، والأعراف الاجتماعية والقيود السياسية ، والتقاليد الأدبية و الطبقة و علاقات السلطة التي تحدد المواقع الفاعلة للذوات، و هذه النظم ذات صلة وثيقة بإنتاج الخطاب الإبداعي والفكري وطرائق تلقيه، والأنساق الثقافية لا تقتصر على الأدب الرسمي أو المعتمد في ثقافة ما، و إنّما تتجاوز ذلك إلى الأدب غير الرسمي أو غير المعتمد = الأدب الشعبي.(ضياء الكعبي،2005، 22،23).

تعتبر الأنساق المضمرة والمعلنة من أهم مفردات النقد الثقافي وأبلغ الركائز التي يعتمد عليها فهي التي نجدها في التعريفات التي ترى بأن النقد الثقافي هو تخصص:" معرفي أو أكاديمي ومنهج تحليل للثقافة من منظور اجتماعي"(سايمون ديورنغ،2015، 9).
النسق في معناه الاصطلاحي الترابط والتساند فحين تتواصل الوحدات الوظيفية فيما بينها يمكن القول حينها بأنها تؤلف نسقا وهذا الأخير يتكون من مجموعة العناصر التي ترتبط بعضها ببعض مع وجود مميزات تربط كل عنصر وأخر، ولهذا يتسم النسق المضمر من حيث هو نظام بالمخاتلة واستثمار الجمالي و المجازي ليّمرر جدلياته ومضمراته التي لا تنكشف إلا بالقراءة الفاحصة (يوسف عليمات،2015، 9).

وعليه " يحمل أي نص نسقين متعارضين المضمر ناسخ للظاهر ويستهلك المتلقي هذا النص بوصفه جماليا ويكون هذا النص ذا صبغة جماهيرية فإنه يتحتم على النقد الثقافي الكشف عن الحيل الثقافية في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل مختلفة وأهم هذه المداخل بل كما يرى "الغذامي "الحياة الجميلة، والنسق عنده يحمل دلالة مضمرة منغرسة في الخطاب هي من وضع الثقافة فالنسق يستخدم أقنعة يختفي خلفها من أهمها الجمالية اللغوية" (محمد بن لافي اللوتش،2010، 147).

والنسق الثقافي هو تركيب لمفهوم النسق والثقافة وهي جل العناصر المتفاعلة والمترابطة والمتمايزة التي تتصل بالمقدسات والمعتقدات والمعارف والفنون والأخلاق والعادات التي يكتسبها وينقلها الإنسان من مجتمع معين .

في ختام هذه الإطلالة التنظيرية نستطيع القول إن النقد الثقافي أداة منهجية لقراءة وإعادة قراءة النصوص الأدبية وهو من الضروريات التي لا غنى عنها لتغذية النص الأدبي بمختلف أنواعه لاتساع مجالاته الثقافية ويعتبر النقد الثقافي فرعا من الفروع التي تجاوزت السائد والمعروف والجمالي إلى عالم أدبي رحب وهو يبحث عن الثقافة داخل الأدب.

3. الشعر التراثي والمساءلة الثقافية:

تسعى هذه المقاربة الثقافية إلى استنطاق نصوص الشعر العربي من وجهة مغايرة و مفارقة للقراءة النمطية تتجاوز فيها الرؤية الجمالية و البلاغية إلى استثمار الطرح الثقافي بوصفه من استراتيجيات ما بعد الحداثة لقراءة ما هو مضمر من أنساق.

لقد تأسس النقد الثقافي على كشف المضمر النسقي القابع خلف جماليات اللغة ، فكثيرا ما كانت البلاغة ستارا تختفي خلفه أنساقا ثقافية شديدة الفعالية في ترسيم كوامن النص الإبداعي وتوجيه مساراته، ذلك « النقد الثقافي نشاط أو فعالية تُعنى بالأنساق الثقافية التي تعكس مجموعة من السياقات الثقافية و التاريخية و الاجتماعية و الأخلاقية والإنسانية و القيم الحضارية بل حتى الأنساق الثقافية الدينية و السياسية ، أما النص الأدبي فيتعامل معه ليس بوصفه نصا جماليا بل بمثابة نسق ثقافي يؤدي وظيفة نسقية ثقافية تضمر ما هو مضاد للمعلن في النص الأدبي و يقصي الجانب الجمالي ووظيفته الشعرية »(سمير خليل ، 2012، 7).

تتحقق الوظيفة النسقية في أي نص من خلال ميل الثقافة إلى تمرير أنساقهاتحت أقنعة ووسائل خفية ، كالحيل الجمالية و الأخلاقية.... وعندها يتنازع النص نسقان، أحدهما مضمر نقيض لآخر علني، يحمل من القيّم الجمالية و الأخلاقية ما يسمح له بغرس قيّم الثقافة /النسق. ولابّـــد من أن يكون مقروءا وواسع الانتشار وبذلك يمكن الوقوف من خلال آلية النقد الثقافي على ما للأنساق من فعـــل مؤثر وضارب في الذهن الاجتماعي والثقافي.(العربي الحضراوي ، 152،2020).

لهذا ارتأينا في هذه الورقة البحثية الوقوف عند بعض نصوص الشعر العربي التراثي، هذا الشعر الذي كان السّمة الغالبة للعرب، و هو علمهم الذي ليس لهم علم أصح منه كما ورد في الأثر ، إنّه الحامل لتاريخهم، ومآثرهم و قصصهم و بطولاتهم ، وعوالم ثقافتهم و لأن «النص حادثة ثقافية نسقية فإنّ أنساقه تكتسب خاصية الانفتاح على فضاءات في الثقافة والإيديولوجيا و التاريخ، بحيث تلحظ هاته المعطيات ،دون ان تكون متعالية على بنية الخطاب ، بوصفها بنية نصيّة مثل اللغة المشكلة للنص، بالإضافة إلى كونها نموذجا للتمثيل أو للفجوات النصيّة ... ».(يوسف عليمات،2015، 20).

فإننا سنحاول الكشف عن الأنساق الثقافية في بعض نصوص الشعر العربي التراثي ، هذا الشعر الذي لطالما كان محط فخرنا و اعتزازنا و لكنه في مقابل ذلك أيضا – حسب الباحث عبد الله الغذامي –كان المخزّن الأخطر للأنساق الثقافية وهو الجرثومة المستترة بالجماليات التي ظلت تفعل فعلها و تفرز نماذجها جيلا بعد جيل ليس في الخطاب الشعري فحسب بل في كل التجليات الثقافية بدءا من النثر الذي تشعرن منذ وقت مبكر ، وكذا الخطاب الفكري والسياسي و التأليفي بما فيه النقدي و كذلك في أنماط السلوك و القيّم و لغة الذات مع نفسها ومع الآخر(عبد الله الغذامي،2005، 87) ، وتأسيسا على ذلك نستعرض الأنساق الآتية :

1.3. سلطة الفحل الحاكم أو النحن القبلية:

و هو نسق يتكرر كثيرا في منظومة الشعر التراثي أين يكون الشاعر دوما مدافعا عن قبيلته، فارضا لسلطة القبيلة الحاكمة في مقابل استصغار آخر وتقزيمه ففي « معلقة عمرو بن كلثوم تبرز تجليات فكرية مكثفة لموضوع السلطة بوصفها إشكالية نسقية تجلي في أبعادها الدلالية رؤية الشاعر الجاهلي تجاه مجتمعه و هي رؤية وجودية نافذة تقرأ الواقع بكلية تفاصيله ، و تحاول بثقافتها الإبداعية رصد هذا الواقع و تشظيات آماله و آلامه ».(يوسف عليمات،2015، 70).

جاء في معلقة عمرو بن كلثوم:(يوسف عليمات،2015، 70):

ورثنا مجد علقمة بن سيف * أباح لنا حصون المجد دينا**

ورثت مهلهلا والخيـــر منهم * زُهيرا نعم ذخر الذاخـرين**

وعتابا و كلثـــوما جميعـــا * بهم نلنا تـــــراث الأكـــرمين**

(...)

متى نعقـــــد قَرينتنا بحبل * نجـــذ الوصل أو نَقص القرينـــا**

ونـــوجد نحن أمنعنا ذمارا * وأوفاهم إذا عقـــدوا يمـــــينا**

ونحن غداة أوقـــد في خزار * رفـــدنا فـــوق رفد الرافدينا**

ونحن الحابســـون بذي أراطى * تسف الجِلة الخور الدرينا**

ونحن الحاكمون إذا أطعنا * ونحن العازمـــــون إذا عُصينا**

و نحن التاركـــون لما سخطنا * نحن الآخـــــذون لما رضينا**

إنّ فاعلية النحن القبلية في الخطاب الشعري الماثل أمامنا تكرس الفخر و قيم القوة، و القدرة على الالتزام بالعهد، تؤكد حضور القبيلة و الغاء ما سواها و لهذا « يتضام صوت الأنا مع الحضور النحني المكثف ليبرهن فاعلية الأنا في إطار الثقافة الجمعية المشتركة، و التي تؤسس بدورها لفكرة المجد الأبدي الذي يدحض ثيمة الفناء، و يخلد الفعل البطولي الإنساني من خلال أسطرة النماذج الإنسانية التي تكبح سلطة الزمن و تفرض وجودها بفعل الأثر الخالد ». (يوسف عليمات،2015، 85).

هذا الحضور الطاغي للنحن القبلية و اقصاء الآخر يكرس قيّم الأنانية، و يحرض على القوة و السيطرة على الآخر المختلف وهـــو ما يفضي إلى العنف و الحرب.

2.3.العنف و تمجيـــــــد الحرب :

يعد العنف نسقا ثقافيا قديما وهو من الظواهر الخطيرة التي انتشرت بين المجتمعات ومنها المجتمع العربي، وتسربت إلى جميع الخطابات السياسية و الإعلامية والثقافية وحتى الشعرية ما جعل الشعر يحمل دوما تمجيدا للعنف و الدعوة إلى الحرب ، قيّما حطّت من قيمة الحياة،(سعيدة تومي ، 2019، م3ع2 ،62) و كرست ثقافة القوي المنتصر العنيف .

ورد في معلقة بن كلثوم أيضا :

نُطَاعِن ما تراخى الناس عنّا * ونضرب بالسيوف إذا غُشينا**

(...)

نَشُقُ بِها رُؤُوس القَوْمِ شقًّا * ونَخْتَلِب الرّقَاب فَتَخْتَلِينَا**

نَجُذُ رؤوسَهم في غير بَرٍّ * فَمَا يَدْرُون مَاذَا يَتَقُونَا**

كأنّ سيوفنا منّا ومنهم * مخاريق بأيدي لاعبينا**

كَأَنَّ ثِيَابَنَا مِنَّا ومِنْهم * خُضِبن بأَرْجُوان أو طُلينا**(الزوزني، 209،210)

إنّ النص مغلف بجمالية لغوية رائعة ، تفصح في نسقها الظاهر عن القوة والعظمة والفخر ، غير أنّ مضمرها يفرض بشكل لا واع قيّم العنف والقتل والموت ، إنّ قطع الرقاب و شقّ الرؤوس، وتقطيعها في كلّ الأرجاء، وصوّر قاسية لا يعرف فيها الآخر كيف يتقي شرّهم من القتل و سبي الحريم و استباحة الأموال وكلّ هذا دليل القوة والبطش ، وتأكيد على القسوة والعنف وعدم الايمان بالحوار مع الآخر لحل الخلافات والنزاعات ، ما يجعل الخطاب الشعري يرسم ملامح وعي ثائر وغاضب يؤمن بالقوّة الرهيبة و القدرة العالية على قهر الآخر وايذائه.

وهو ما نلمحه أيضا في نصوص شعرية كثيرة للمتنبي تتوضح فيها خطاب العنف بدل خطاب الحوار والتفاهم والانسجام : (سعيدة تومي وآخرون، 2020، 34/35).

قضاعة تعلم أنّي الفتى الـ * ـذي ادْخَرَتْ لصُروف الزّمان**

(...)

أنا ابن الفيافي أنا ابن القوافي * أنا ابن السروج أنا ابن الرعان**

طويل النجاد طويل العماد * طويل القناة طويل السنّان**

(...)

يُسَابق سَيْفي مَنَايَا العباد * اليهم كأنهما في رِهَـــــان**

يرى حدّه غامضات القلوب * إذا كنت في هبوة لا أراني**

سأجعله حَكَمًا في النفوس * ولو ناب عنه لساني كفاني**(المتنبي ،1983، 33)

يضمر هذا النص العنف في تأكيده على مظاهر القوّة و الاعتزاز بها و تحكيم السيف قبل الكلام / الحوار ، ما يعزز قيّم الصراع بين الأفراد ، وهي نص يعكس تصاعد العنف في خطاب المتنبي ، و هي المضمرات نفسها في النص الآتي :

يخيّـل لي أنّ البـــلاد مسامعي * و أنّي فيها ما تقـــول العَوَاذِلُ**

ومن يَبْغِ ما أبغي من المَجْد و العُلى * تَسَاوَ المَحَايي عنده و المقاتِلُ**

ألا ليست الحاجات إلاّ نفوسـكم * وليس لنا إلاّ السيُوف وسائِلُ**

كل ما عرضناه يعزز قيّم العنف في الثقافة المجتمعية، يجعل من نسق العنف ووسائلها كالسيوف و الخيول و الرماح صفات إيجابية يتحلى بها، ما يجعله نموذجا يقتدى به.

يتسرب العنف في ضوء هذه النصوص إلى سلوكياتنا، فنقصي الحياة ونكبت الحب وننسى تعاليم ديننا الحنيف القائم على السِّلم والسلام وثقافة الحوار حتى بين الأديان، فيصبح العنف نسقا واضح المعالم في أدبياتنا وتعاملاتنا، وتصف هذه النصوص عواطف لاإنسانية مشحونة بالغضب والقسوة. إنّها في حقيقتها دعوة إلى تدمير الآخر وسحقه، وهذه « علامة كاشفة على مدى الخراب النسقي الذي أحدثه الشعر في سلوكيات الثقافة »(عبد الله الغذامي ، 2005، 157).

3.3.نسق الملك الضائع أو السلطة الضائعة:

وهو ما وقف عنده الباحث يوسف عليمات في معلقة امرئ القيس (يوسف عليمات،2015، 33):

قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل * بسقط اللوى بين الدخـــول فحومل**

فـتـــوضح فالمقـــراة لم يعف رسمها * لما نسجتها من جنوب و شمأل**

تـــرى بعـــر الآرام في عرصـــاتها * و قيـــعانها كأنّه حب فلفل**

كأني غـــداة البَين يـــوم تحملوا * لدى سمـرات الحي ناقل حنظل**

وقـــــوفا بها صحبي عليّ مطيّهم * يقولـــون لا تهلك أسى وتجمّـل**

وإنّ شفائي عبـــرة مهراقة * فهل عن رسم دارس من معـــوّل**

يؤسس هذا المقطع طقسية بكائية متعددة الوظائف و الأبعاد ضمن النسق الأيديولوجي ، إذ تتجلى هذه الطقسية وقد ارتبطت بالبعد الإنساني على المستوى الأولي : قفا (الانسان / المجموع وتشظياته حبيب /الإنسان/ القتيل الملك المسلوب ماضيا) ومن ثم ترتبط بالبعدين الزماني المختزل (ذكرى الحبيب/ زمن السلطة / الملك)، والمكاني المكثف (سقط اللوى و الدخول و حومل توضح ، المقراة).(المرجع نفسه،33).

بين الماضي الأليم و حنين الموقف و الذكريات يجسد المكان ذاكرة ثقافية مشحونة بالأحداث والوقائع والحروب التي مرت على المكان فأضحى مسكونا من قبل الحيوان، ليغدو المكان موحشا و غريبا، و«هذا التحوّل المؤلم في عالم السلطة من المركز –الثبات إلى الرحيـــل عن هذه السلطة إلى آفاق المجهول وهو ما دفع الشاعر إلى رثائها بدموع حرى لا تنقطع، تماما كما هو حال ناقف حنظـــل و ذلك إشارة منه إلى لذة الفقد و إحساسه العميق بفداحة المأساة». (المرجع نفسه،33). بخسارة الملك والسلطة، ومـــركزية النحن.

لقد كانت فاتحة النص في معلقة امرئ القيس مسؤولة عن تهدم البناء الاجتماعي وغياب السلطة السياسية، وتشكل الخواء المكاني، فقد تمكن الشاعر من استحداث أدوات واستراتيجيات ثقافية واعية شكلتها مقاطع المعلقة فقد أسهمت هذه الاستراتيجيات في تأسيس ملامح هوية جديدة لتعلن فاعلية الذات و تمركزها في إطار الجماعة.(المرجع نفسه،64). وهو الهاجس الذي عاش من أجله الشاعر العربي طويلا مدافعا قويا عن القبيلة لا ير ذاته إلا داخلها.

4.3.الصوت المهمش في شعـر عنتـــرة :

أفـرزت دراسات ما بعد الكولونيالية الحديث عن مفهوم القراءة الطباقية عند ادوارد سعيد وهي القراءة التي تهدف إلى الكشف عن كلّ الأصوات التي تشكّل الحياة الثقافية وإعطائها فرصة للظهور والكشف عن ما ترغب في البـــوح به كما « تهدف إلى معالجة النص و ما يتضمنه من المسكوت عنه و المنطوق به في علاقته بالعالم الذي انبثق عنه هذا النص ، و الذي يخاطبه في ذات الوقت ».(حسين حمير ، م9، ع2، 194)

بإيجاز، ادوارد سعيد يعتبر أن مقاربة الظاهرة الأدبية لا ينبغي أن تركز على طرف واحد بتغليبه على الطرف الآخر بمبررات إيديولوجية، إذ وجب منح الظاهرة الأدبية وحدتها وتماسكها وانسجامها الداخلي بشكل يكشف عن غناها. وهوما يفسح المجال لكل الأصوات لتفصح عن نفسها بدل قمعها أو إغفالها.

إنّها القراءة التي تركز في استكناهها للبنى النصيّة على تجليات الصراع الإنساني و كذلك تمظهرات العمل الإنساني المقاوم لأنّ الصراع بين نماذج الخطاب المختلفة، و التحديديات المتباينة و كذلك المعاني في إطار الإيديولوجيا عادة ما يكون صراعا حول المدلول: أي أنّه صراع من أجل الاستحواذ على الإشارة التي تمتد إلى معظم المساحات العادية في الحياة اليومية.(يوسف عليمات، 2015، 97) .

ولاشك في أنّ صراعات الأيديولوجيا والهوية تبرز مفارقات ضدية في منظور النقد الما بعد كولونيالي بين المقدّس و المدنّس في الفكر الإنساني و تطرح جدليات حادة يجسدها قانون الضدية بين المركزي / السلطوي الهامشي.(المرجع نفسه ، 99).

تكشف **القراءة الطباقية**، إذن، عن الأصوات الإنسانية التي تنبثق عن طريق المقاومة، ونستعيد من خلال خصوبة الحياة الإنسانية التي قمع فيها الصوت الأقوى بعنصريته الدفينة سائر الأصوات الأخرى، لذا يبدو البحث في إشكالية الهوية مسارا فاعلا في منهج القراءة الطباقية ، خاصة و أن « الهوية تعطي للإنسان معنى يشرح دلالات حياته و حينما يتحول معنى الهوية إلى رصيد من التجارب المتوارثة إلى درجة تصبح معها الأسماء و الألسنة و الثقافة مادة لتمييز شخص عن شخص ثم تصبح مادة لضمائر أخطر من ضمائر الذات أي : نحن و هم ، و إن كانت الخصائص الذاتية أساسا لتمييز الشخص من اسمه و لغته و لونه فهي أيضا مادة لفرزه عن الآخرين المختلفين عنه مثلما هي مادة لجذبه لمن هم على شاكلته ».(عبد الله الغذامي، 2009، 51).

وهو ما يفســح المجال للحديث عن الهوية المقاومة و التي تنتج عن النشطاء الواقعيين في موقع أو في حال التقليل أو التصنيف الدوني كنتيجة لسلــوك ومنطق العناصر المهيمنة ، ومن هنا يبني الهامشيون خنادق للمقاومة والدفاع عن وجودهم على قواعد ومبادئ مغايرة أو مضادة لما هو عند القوى المهيمنة و هذه سياسة انبثاق الهوية.(المرجع نفسه، 51).

و يجنح الهجين في الثقافة الإنسانية دائما إلى الرفض و المقاومة بوصفه إفرازا من افرازات الصراع حول تكريس سلطة الهوية ذاتها، إذ أنّ الهجين كما يرى ويلسون هاريس يناضل دوما في الحاضر لتحرير نفسه من ماض يمّجد الأسلاف ويعلي قيمة النقيّ على نقيضه الذي يهدده .(يوسف عليمات ، 2015، 101/100).

تأسيسا على قدمناه يأتي نص عنترة بن شداد بوصفه نصا ثقافيا بامتياز يضمر في ثناياه الصراع الطبقي بين السلطة/ القبيلة و المهمش أو الهجين بوصفه صورة للعبيد الذي لطالما كان مهمشا له منزلة دونية عن الآخر المهيمن/ القبيلة.

ولكن هذا الصوت المهمش يسعى دوما إلى إثبات ذاته و تفعيل وجوده ويستعرض قدراته أمام السلطة المهيمنة التي لا تنفك دوما تستصغره و تهمشه ولا تعترف بشرعيته و هو ما يعّد ظلما و تهاونا بإنسانية العبيد / الشاعر وتجسيدا للهوية المقاومة يبوح بتمرده و يعلن عن تحديه لظلم القبيلة بظلم أقوى و أقسى :

فإذا ظُلمت فإنّ ظلمي باسل ** مـــــرّ مذاقه كطعم العلقـــم**

إنّ النسق المهمش يصرح بتحديه للقبيلة / النسق المهيمن بظلم صعب التفادي أو التخلص منه ، فالظلم الذي يعلنه عنترة صوتا و فعلا ما هو إلاّ ردّ عملي يتبناه النموذج الإنساني المقهور إزاء مرارة العبودية التي عاشها في عالم القبيلة الآسرة .(المرجع نفسه ، 128).

فالشاعر بدا قادرا على العنف و خوض الحروب قُدْرَته على الحنان و طيب المعاشرة، إنّه وقت الحرب فارسا كريما عاليّ الهمّة ، مقداما لا يعرف الاستسلام.

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك * إن كنت جاهلة بما لم تعلمي**

يخبرك من شهد الوقيعة أنّني * أغشى الوغى و أعفّ عند المغنم**

ومدجّج كره الكُماة نزاله * لا ممعن هربا ولا مستسلم**

جادت له كفّي بعاجل طعنة * بمثقف صدق الكعوب مقوَّم**

فشككت بالرّمح الأصمّ ثيابه * ليس الكريم على القنا بمُحرّم**

و تظل المعلقة مفتوحة على الكثافة الدلالية التي ترسم صورة البطل الذي يشكّل عالمه الخاص و يسعى إلى ترسيخ تجارب عدة مع المحبوبة و المكان و النسق المضاد / القبيلة ، اسماعا لصوته و تفعيلا لكينونته في مواجهة صريحة للهيمنة التي تمارسها القبيلة في حق النسق المهمش / العبيد بهيمنة مضادة تحترم الانسان و تعلي من قدر الإنسانية على اختلافها و تنوعها و تعدد ألوانها.

4. خاتمـــــــة :

تأسيسا على كل ما ذكرناه يمكننا تلخيص ذلك في ثنائية (الجميل الشعري / القبيح الثقافي)، ففي خطابنا الشعري التراثي جماليات لغوية لا ينكرها أحد مازلنا نفخر بها و نستمتع بسماعها و تعجبنا بلاغتها، إلاّ أنّ ذلك يضمر أنساقا ثقافية في غاية الخطورة و الجدية ، و البحث فيها من ضروريات النقد الثقافي.

النقد الثقافي فعل قراءة بالأساس للخطاب الأدبي وسّع من امكانياتها التأويلية و كشف فيها عن أبعاد وزوايا كانت مغيبة و مقصاة من القراءة و الكشف في ظل النقد الأدبي، إنّه ليس منهجا و إنّما قراءة موسعة للخطاب ولهذا لا يمكن ضبط خطواته الإجرائية لأنّه محكوم بالتعددية الثقافية ، إنّه يستفيد من كل المناهج و الآليات التي تتيح له قراءة الخطاب و كشف أنساقه المضمرة.

. قائمة الإحالات :

1. أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي(1983) – ديوان المتنبي – دار بيروت للطباعة و النشر – بيروت –
2. أبو عبد الله الحسين بن احمد الزوزني – شرح المعلقات العشر– ص: 209-210.
3. حسين حمير ، القراءة الطباقية عند ادوارد سعيد ، مجلة انثربولوجية الأديان ، المجلد 9، العدد2 ، جامعة أبي بكر بلقاسم ، تلمسان .
4. سايمون ديورنغ(2015) : الدراسات الثقافية (مقدمة نقدية)، تر: ممدوح يوسف عمران، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الكويت،
5. سعيدة تومي (2019)، المضمر النسقي في الشعر الأموي ، مجلة العمدة في اللسانيات و تحليل الخطاب ، المجلد 3، العدد2، .

6. سعيدة تومي و آخرون (2020)، النقد الثقافي / قضايا ورؤى، دار ألفا للوثائق و النشر و التوزيع، الجزائر .
7. سمير خليل (2012)، النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب ، دار الجواهري، العراق ، ط1،
8. ضياء الكعبي (2005)، السرد العربي القديم / الأنساق الثقافية و إشكالية التأويل ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت، ط1.
9. عبد الله الغذامي (2005) – النقد الثقافي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية – المركز الثقافي العربي – بيروت – ط3– .
10. عبد الله الغذامي (2009)، القبيلة و القبائلية / هويات ما بعد الحداثة ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، ط2، 2009.
11. العربي الحضراوي (2020)، النقد الثقافي و أثره في تأصيل المنهج بين الحمولة الفكرية و الخصوصية الثقافية ضمن الكتاب الجماعي مطارحات في النقد الثقافي ، دار ألفا للوثائق و النشر و التوزيع، الجزائر ، ط1،
12. محمد بن لافي اللويش(2010) : جدل الجمالي والفكري (قراءة في نظرية الأنساق المضمرة عند الغذامي) ، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، .
13. يوسف عليمات (2015) ، النقد النسقي / تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي، الأهلية للنشر و التوزيع ، الأردن ، ط1..